قصة بنى اسرائيل

كما يرويها " الكتاب المقدس "

بقلم عبد العزيز بدهام

(أولا) جوانب معتمة فى تاريخ بنى اسرائيل

١ — الشعب الباسل .... المقدام ! !

كما وصفه " العهد القديم "

اعتدى بنو اسرائيل على مصر هذا العام (١٩٥٦)، وأذاعوا فى العالم أجمع أخبار انتصاراتهم «الباهرة» على رمال صحراء سيناء، ونسبوا إلى جيوشهم من الشجاعة والإقدام ما لا يكاد يصدقه عقل. ولكن هؤلاء المدعين يعلمون فى قرارة أنفسهم أنهم لم يكونوا فى يوم من الأيام جنودا مبرزين، جنودا يعرفون قوانين الحروب، ومبادئ المعاملات الإنسانية، بل كانوا دائماً أهل غدر وخيانة، أقاموا دولتهم القديمة التى لا يزالون يتشدقون بمجدها على الختل والخديعة، ولم يستطيعوا أن يبنوا فيها شبرا دون الاستعانة بالههم الأنانى الغريب الشأن — كما يصورونه — ثم أقاموا دعائم ما يسمونه اليوم «اسرائيل» على النفاق والجبن والمخاتلة. وقد اتخذوا من الانجليز والامريكيين وغيرهم إلهاً لهم فى العصر الحديث، يشدون أزرهم، ويمدونهم بالمال الذى يقيمون به أود حياتهم، ويدافعون عنهم إذا بدا لهم أن يشنوا حربا على جيرانهم من العرب الأمجاد. وليس هذا الأمر بجديد عليهم؛ فتاريخهم الطويل يبين أنهم فى مسيس الحاجة دائماً لمن يحارب عنهم أو يقوى من عزائمهم، ويتحمل ويلات الحرب وآلامها إلى جانبهم أو بدلا منهم ثم يتشدقون بعد ذلك بالنصر والهزائم، وبالبسالة والاقدام، وبالغنائم الهائلة وغير الغنائم . . . ويعلنون ذلك فى جرأة منقطعة النظير على رءوس الاشهاد دون ما وجل ولا حياء.

ولكن هذا العمل نفسه أكبر شاهد على أن الاسرائيلي هو هو لم يتغير ، فهو لا يزال يترسم خطى آبائه وأجداده الذين جبنوا عن أن يستمعوا الى صوت « يهوفا » يدعوهم الى القتال فى سبيل أرض ستكون لهم ولذريتهم من بعدهم ميراثا ، دون أن يكلفهم ذلك شروى نقير ، فقالوا لموسى : « اذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا ها هنا قاعدون » .

إن الصيونى أحرص الناس على حياته ؛ فكيف تريده أن يخاطر بها ، ليقال عنه يوما ما إنه شجاع . انه لا يقيم لهذه الشجاعة وزنا ، ولا يعرف لها طعما ، لأن الشجاعة سبيل الموت ، وهو لا يريده ؛ لأنه يحرمه ملذات الحياة ، والضرب فى آفاق الأرض بحثاً وراء الذهب الذى تردد اسمه فى كتابه « المقدس » آلاف المرات .

إنه حريص كل الحرص على أن يطبق تعاليم « العهد القديم » فهو شريعته المقدسة ، وهو المنارة التى يسير على هداها ؛ والعهد القديم يدعوه إلى الجبن ، ثم التغنى بعد ذلك بالانتصارات الباهرة . إنه ليذكر أن اسلافه قد أظهروا من التخاذل عن غزو أرض كنعان ما جعل موسى يبرأ منهم مراراً وتكرارا ، وما جعل « يهوفا » יהוה الذى اختارهم من بين شعوب الأرض ليكونوا شعبه ، ينكر عليهم هذا التخاذل ، وينكر عدم ثقتهم به ، وينحى عليهم غير مرة باللائمة ، وينزل بهم أشد ألوان العقاب ، ويحرم الكثيرين منهم من أن يدخلوا « أرض الميعاد » فيميتهم فى طور سيناء ، ولم يزل بالبقية الباقية منهم يمنيها ويعدها بأنه لن يتخلى عنها فى حروبها حتى جمعت أطراف شجاعتها ، وأقدمت على مجابهة أهل البلاد المغزوة . ولكنها كانت لا تخطو خطوة إلا بعد أن تأخذ العهود والمواثيق على أنه معها ، لا يغيب عن كفاحها المسلح لحظة واحدة ؛ فاذا لم يؤكد لها أنبياؤها وقادتها ذلك نكصت على أعقابها ، وتخلت عنها شجاعتها . فاذا ما كتب لها نصر بالغت فيه أيما مبالغة ، وحاكت حوله الأساطير ، وجعلت من جنودها الجبناء مُثُلاً للبطولة ، وهى تعلم حق العلم أنها فى ذلك كاذبة ، لأنها لم تحرز نصرا ، ولم تكسب معارك ، ولكن ظروفا ألمت بها — كما ألمت بها

الظروف التي خلقها الانجليز والفرنسيون اليوم — جعلتها تتغلب بعض التغلب على أهل البلاد الوادعين الآمنين ، وتشردهم من ديارهم ، كما تفعل اليوم .

إن كل إسرائيلي يتخذ من كتاب « العهد القديم » كتابا مقدسا يعلم ذلك ، ويعلم أكثر من ذلك . يعلم أنه يضم بين دفتيه كل ما انطوت عليه نفس الصيوني من خيانة وغدر ، ومن فظاظة وقسوة ، ومن كذب ورياء ... وهذه الطباع ليست بجديدة عليه بل إنها قد تمشت في عروقه مع الدم منذ أن كان عبدا مسخراً في أرض مصر . والغريب في الأمر أن « يهوفا » الذي يتغنى الصيونيون اليوم بوعده آباءهم إسكانهم وذريتهم « الأرض الموعودة » الى الأبد ، هو هو الاله الذى شق بهم وشقوا به ، وشقوا عليه عصا الطاعة مئات المرات ، ولقى منهم الأمرين . لقد وصفهم بما لا يمكن أن يوصف به إنسان كريم ، وقد أملى هذا الاله نفسه عليهم ، على لسان رسله ، مبادئ فى معاملة أهل البلاد المفتوحة لا تتفق والروح الانسانى فى شئ مهما قيل فى الدوافع التى كانت تحدو به إلى إملائها .

إن تاريخ بنى إسرائيل قديما ليذكر أنهم ما كانوا ليقدموا على إعلان حرب « مقدسة » إلا اذا وثقوا — كما قلنا — كل الثقة من أن يهوفا سيحارب معهم بجنوده ووعوده . فاذا ما أحسوا بتخليه عنهم لجئوا إلى الدموع يهطلونها مدرارا ، كما تفعل النساء ، حتى يرق لحالهم ، فيأخذ بناصرهم .

« والعهد القديم » يصف بنى اسرائيل بايثارهم حياة الذلة والمسكنة على حياة الحرية والاستقلال ، ما دامت هذه تدفع بهم الى العمل والكد ، وتلك تضمن لهم بعض الراحة . فلقد جاء موسى الى مصر ليخرج منها بنى جلدته الذين كان المصريون يسومونهم سوء العذاب ، إلى أرض وعدوا بالحصول عليها ، ولكنهم طولبوا بالكفاح دونها . فلما أن جاوز بهم البحر ، ووجدوا أنفسهم فى صحراء سيناء ، وبعدوا عن خيرات مصر ونعيمها تألبوا عليه ، ورفضوا أن يكافحوا معه للحصول على هذا المغنم الجديد ، وطلبوا منه أن يذهب هو وربه ليقاتلا ، أما هم فسيظلون حيث هم يرقبون نتائج المعركة .

استمع إليهم وهم يُقرِّعون مؤسس شريعتهم الذى حاول أن يخرج بهم من أرض « الذلة والعبودية » التى كان المصريون فيها يسخرونهم فى أحط الأعمال وأقذرها ، ويتخذون منهم عبيدا يستذلونهم ويستحيون نساءهم — إلى أرض يتنسمون فيها عبير الحرية . استمع اليهم وهم يرفضون هذه الحرية فى « إباء وشمم » ويطلبون العودة بهم إلى أرض الاسترقاق والاستذلال ، لأن للحرية ثمنا — هو التضحية — لا يريدونه . ولقد عوقبوا على هذا التمرد والعقوق بأن أتيهوا فى طور سيناء أربعين عاما حتى تذل نفوسهم ، و « يجبروا » على السير مع (موسى) فى طريق إنقاذهم مما كانوا فيه من مهانة . لقد أكرههم (يهوه) على محاولة تذوق طعم الحرية ، فأذلهم تارة ، واسترضاهم أخرى ، وهم بين هذه وتلك كارهون .

أخرج موسى بنى اسرائيل من مصر ، وسار بهم إلى طور سيناء ، فى طريقهم إلى « أرض الميعاد » ولم يكن يعرف أنه سيشق بهم وسيشقون به فى هذه الفترة من تاريخهم . وكثيرا ما غضب أشد الغضب ، كما غضب هارون أخوه ، من صنع هذا الشعب الجبان الكسلان ، الذى لم يكن يرغب فى أن ينقذه من تسخير الفراعنة له ؛ لأنه كان يعيش فى مصر فى رغد من العيش ، ولو كان ذلك يمس عزته وكرامته .

وهاهو ذا سفر الخروج يقص علينا بنفسه كيف خاصم بنو اسرائيل منقذهم ، وكيف استعصوا عليه ، وتمردوا ...

« ثم ارتحل كل جماعة بنى اسرائيل من بادية سين סִין مرحلة مرحلة : كما أمر الرب ، ونزلوا رفيديم רְפִידִים ، ولم يكن بها ماء يشرب منه الشعب ، فتلاحى الشعب مع موسى ، وقالوا : اعطونا ماء حتى نشرب . فقال لهم موسى : لم تلاحونى ؟ ولم تضعون الرب موضع التجربة ؟ . وهناك عطش الشعب إلى الماء ، فتذمر الشعب من موسى ، وقال : لماذا أصعدتنا من أرض مصر ، لتقتلنا وبنينا ومواشينا من العطش ؟ وصرخ موسى إلى الرب وقال : ماذا أصنع لهذا الشعب ؟ إنهم يكادون يرجموننى ... وسمى المكان

« محنة وملاحاة » ؛ لملاحاة بنى اسرائيل وامتحانهم الرب وهم يقولون : « أبيننا الرب أم لا » [1].

ويقول فى ذلك سفر العدد :

« وأقبل بنو اسرائيل ، [أقبلت] الجماعة كلها ، إلى صحراء صين ... ولم يكن لدى الجماعة ماء ، فاجتمعوا بموسى وهارون ، وتلاحى الشعب مع موسى وقال : ليتنا متنا عند موت إخوتنا ، أمام الرب . لماذا جئتما بجماعة الرب إلى هذه الصحراء ، لنموت هاهنا ، نحن وبهائمنا ؟ ولماذا أصعدتمانا من مصر ، وأتيتما بنا إلى هذا المكان الخبيث ، انه مكان لازرع فيه ولا تين ، ولا كرم ، ولا رمان ، ولا ماء للشرب » [2].

« فقال الرب لموسى وهارون : « بما أنكما لم تؤمنا بى ، حتى تقدسانى أمام بنى اسرائيل ، فلن تُدخلا أنتما هذه الجماعة الأرض التى أعطيتهم اياها » [3].

هذه هى أمة اسرائيل التى تنكرت فى سرعة لما صنع ربها من جميل ، فخرجت عن طاعته حتى اشتد غضبه عليها ، وفكر فى إبادتها . إنها أمة شريرة كما يقول هارون حين سأله موسى — وقد اشتد به الغضب — عما فعل ، فرد عليه بقوله : « لايضطرم غضب مولاى . أنت تعرف الشعب إنهم أشرار » [4].

هذا هو شعب إسرائيل الذى لم يثق فى منقذه ، ولم يثق فى ربه ، وأراد اختبار قدرته ، ونسى أنه أظهرها حين فرق به البحر ، فأنجاه وأغرق آل فرعون ، وهو ينظر — فتذمر ولم يصبر على مرارة العيش فترة من الزمان وكاد يرجم الرسول الذى جاء ليهبه الحياة الحرة الكريمة ، وتمنى لو عاد به إلى أرض مصر . فكان جزاؤه أن حرم من دخول « الأرض الموعودة » .

---

(١) خروج ١٧ / ١ – ٧

(٢) عدد ٢٠ / ١ – ٥

(٣) عدد ٢٠ / ١٢

(٤) راجع عدد ١٤ / ٢٧

وقد تجلت لهم قدرة (يهوڤا) مرة ثانية ، حين فجر لهم من الصخر عيونا ليشربوا منها : « وإذ استسقى موسى لقومه ، فقلنا : اضرب بعصاك الحجر ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا . قد علم كلُّ أناسٍ مَشْربَهم . كلوا واشربوا من رزق الله ، ولا تَعثَوْا فى الأرض مُفسدين (١) » .

ولكن صفة الخوف التى تسيطر على نفوسهم ، ونكران الجميل جعلتهم لاينفكون عن طبيعتهم الغادرة ، ولايعرفون لهذا الخالق الذى اتخذ منهم صفوة مخلوقاته حقا . فما كاد موسى يصعد الى الجبل لتلقى الشريعة ، ويبطئ فى نزوله حتى حمل الشعب هارون على أن يصنع له تمثالا يعبده ، فاستجاب هارون لطلبه واتخذ مما معه من حلى عجلا يعبدونه . « فقال الرب لموسى : هلم . انزل ، فقد فسد شعبك الذى أخرجته من أرض مصر ، لقد حادوا سريعا عن الطريق الذى أمرتهم بسلوكه ، فصنعوا لهم عجلا مسبوكا وسجدوا له ، وذبحوا له ، وقالوا : هذه هى آلهتك ، ياإسرائيل ، التى أخرجتك من أرض مصر (٢) » .

ويردد صاحب سفر التثنية صدى هذا فيقول :

« حين صعدت إلى الجبل لكى آخذ لوحى الحجر ، لوحى العهد الذى قطعه الرب معكم ، أقمت فى الجبل أربعين يوماً وأربعين ليلة ، لا آكل خبزاً ولا أشرب ماء ؛ وأعطانى الرب لوحى العهد المكتوبين بإصبع الله ، وعليهما مثل جميع الكلمات التى كلمكم بها الرب فى الجبل ، من وسط النار ، فى يوم الاجتماع . وفى نهاية الأربعين نهارا ، والأربعين ليلة أعطانى الرب لوحى الحجر ، لوحى العهد ، وقال الرب لى : قم ، انزل عاجلا من هنا ، فقد فسد شعبك الذى اخرجته من مصر : حادوا سريعا عن الطريق الذى أمرتهم [بسلوكه] ، صنعوا لأنفسهم تمثالا مسبوكا (٣) ... » فانصرفت ، ونزلت من الجبل ، والجبل يشتعل نارا ، ولوحا العهد فى يدى » .

---

(١) سورة البقرة ٦٠

(٢) خروج ٣٢ / ٧ — ٩

(٣) تثنية ٩ / ٩ — ١٢ .

« فنظرت ، وإذ بكم قد أخطأتم فى حق الرب ، إلهكم : صنعتم لكم عجلا مسبوكا ، وحدتم سريعا عن السبيل التى أمركم الرب باتخاذها فأخذت اللوحين وطرحتهما من يدى ، وكسرتهما أمام أعينكم . ثم سقطت أمام الرب كما فعلت قبلا أربعين نهارا وأربعين ليلة ، لا آكل خبزا ولا أشرب ماء من أجل خطاياكم التى أخطأتم ، بعملكم الشر أمام أعين الرب لاغاظته ؛ لأنى فزعت من الغضب والغيظ الذى ألم بالرب حتى يبيدكم ، فاستمع لى الرب هذه المرة كذلك . كذلك غضب الرب على هارون غضباً شديداً ، لكى يهلكه ، فصليت أيضا من أجل هارون فى ذلك الحين . أما خطيئتكم التى ارتكبتم ، أما العجل الذى صنعتم فقد أخذته وأحرقته بالنار ، ورضضته ، وطحنته جيدا حتى نعم كالغبار ، ثم طرحت غباره فى النهر المنحدر من الجبل (١) » .

هذا هو لسان موسى (؟) ينطق بآثام الشعب المختار الذى لم يرع لربه الذى اختاره إلاً ولا ذمة ، والذى لم يصبر على غياب قائده أربعين يوما حتى عاد إلى الأوثان يتخذ منها آلهة له ، ويعتقد أنها هى التى أخرجته من مصر .

ولقد قص القرآن هذا الحادث التاريخى الشنيع فى قوله :

" وواعدْنا موسى ثلاثين ليلةً ، وأتممناها بعشر ، فتمَّ ميقاتُ ربه أربعين ليلة . وقال موسى لأخيه هارون : اخلُفْنى فى قومى ، وأصلح ، ولا تتبع سبيل المفسدين (٢) " .

واتخذ قوم موسى من بعده من حُليهم عجلا جسدا له خُوارٌ ؛ ألم يرَوْا أنه لا يكلمهم ، ولا يهديهم سبيلا ؟ اتخذوه وكانوا ظالمين . ولما سُقط فى أيديهم ، ورأوا أنهم قد ضلوا ، قالوا : لئن لم يرحمنا ربُّنا ، ويغفر لنا ، لنكونن من الخاسرين .

" ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً ، قال : بئسما خلفتمونى من بعدى ؛ أعجلتم أمر ربكم ؟ وألقى الألواح ، وأخذ برأس أخيه يجره

---

(١) شرح آية ١٥ - ٢١

(٢) سورة الأعراف ١٤٢

إليه . قال : يابن أم ! إن القوم استضعفونى ، وكادوا يقتلوننى ؛ فلا تشمت بى الأعداء ، ولا تجعلنى من القوم الظالمين . قال : رب ! اغفرلى ولأخى ، وأدخلنا فى رحمتك ، وأنت أرحم الراحمين .

" إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا وكذلك نجزى المفترين "(١) .

وكان غضب (يهوفا) من هذه الفعلة النكراء شديدا ، جعله يفكر فى الندم على اختياره هذا الشعب العاق العنيد ، وفى إبادته ، وخلق شعب جديد من ذرية موسى ليخلفه . يقول :

" وقال الرب لموسى : قد رأيتُ هذا الشعب ، فاذاهم شعب قساة الرقاب(٢). والآن دعنى يضطرم غضبي عليهم نافنيهم ، وأجعلك أنت أمة عظيمة "(٣) .

يقول موسى :

" وقال لى الرب : لقد تأملت هذا الشعب فاذا هو شعب قاسى الرقبة . دعنى أبيدهم وأمحو اسمهم من تحت السموات ، وأجعل منك شعبا أعظم منهم وأكثر عددا "(٤) .

وهكذا عرف يهوفا حقيقة شعبه (وكأنه كان يجهلها !) ، وصمم على إبادته ؛ لأنه شعب لايستحق البقاء . ولكنه عاد فغفرله ، اعتقادا منه بأن هذا الغفران قد يرده إلى الصواب ، فهل ارتد إلى الصواب ؟ . " الكتاب المقدس " يصر على القول بأن هذه المحن المتوالية لم تغير من طبيعة بنى اسرائيل ، ولم تزدهم إلا عنادا واستكبارا ، ولم تستطع أن تخلق منهم أمة شجاعة لاتهاب .

---

(١) شرحه ١٤٨ – ١٥٢

(٢) عنيدون .

(٣) خروج ٣٢/ ٩ – ١٠

(٤) تثنية ٩ /١٣ – ١٤

بل إنها على العكس من ذلك دفعته إلى التمادى فى ضلاله ، وإلى زيادة أسفه على خروجه من مصر ، وعدم استطاعته أن يخلق منه شعبا محاربا يكد ليجنى ثمرة كده .

فهاهو ذا الشعب يعود فيعيد على مسامع موسى أسفه للخروج فى هذه الرحلة الشاقة ، وتركه مصر ؛ فيعاقبه ربه الذى اختاره هذه المرة من غير رحمة .

يقول سفر العدد :

" ولما أن رحل [بنو اسرائيل] من جبل هور ٦٦ ، على طريق بحر القلزم... لحصار أرض إيدوم ضجرت نفس الشعب فى الطريق . وتكلم الشعب عن الرب وعن موسى قائلين : لماذا أصعدتمانا من مصر لنموت فى الصحراء ؛ فانه ليس لدينا خبز ولا ماء ، وقد سئمت نفوسنا هذا الطعام الخفيف ؟ فأرسل الرب على الشعب حيات نارية فلدغت الشعب ، ومات أقوام كثيرون من بنى إسرائيل[1] "

وفى هذا يقول القرآن :

" وإذ قلتم : ياموسى ! لن نصبر على طعام واحد ، فادع لنا ربك يخرجْ لنا مما تنبت الأرض ، من بقلها ، وقثائها ، وفومها ، وعدسها ، وبصلها . قال : أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ؟ اهبطوا مصرا فان لكم ما سألتم . وضُربتْ عليهم الذلة والمسكنة ، وباءوا بغضب من الله . ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ، ويقتلون النبيين بغير الحق . ذلك بما عصَوْا ، وكانوا يعتدون .[2] "

ولكن هل ارتدع شعب الله المختار ، وثاب إلى رشده ؟ الجواب : لا لقد استعمل معه الرب جميع وسائل الارضاء والتهديد حتى يحبب إليه البلاد التى يقوده إليها ، ويحمله على ملاقاة أهلها فى ثوب الفارس المغوار .

---

(١) عدد ٢١ / ٤ - ٦

(٢) البقرة ٦١

لقد حبب اليه هذه البلاد وزين له طريقها ؛ فبين له أنها أرض لن يشق فيها، كما كان يشق فى مصر فى العمل لاستنبات أرضها . إنها أرض تدر « لبنا وعسلا» من غير مجهود يبذل ، ولا قرش ينفق ؛ وهذا هو غاية أمل هذا الشعب .

يقول :

" إن الأرض التى أنت قادم إليها لتمتلكها ليست كأرض مصر التى خرجت منها ، والتى كنت فيها تزرع زرعك وتسقيه بنفسك كزارع البقول . إن الأرض التى ستعبرون إليها لتستولوا عليها هى أرض جبال وأودية ؛ من مطر السماء تشرب الماء ، أرض يتعهدها الرب ؛ الملك : وعينا الرب ، الملك ، عليها دائما ، من أول العام إلى آخره . فان استمعتم إلى أوامرى التى آمركم بها اليوم ، فأحببتم الرب ، إلهكم ، وعبدتموه بكل أفئدتكم ، وبكل نفوسكم — أتيتُ أرضكم مطرها فى حينه ، وسميا وتليا ؛ فتجمع بُرّك وخمرك ، وزيتك ؛ وأنبتتُ عشبا فى صحرائك لبهائمك ؛ فتأكل أنت وتشبع[1] "

هذا هو لون من ألوان الاسترضاء التى كان موسى وربه يبذلانها ليجعلا من هذا الشعب شعبا مغوارا . ولكن هذا الاسترضاء وحده لم يكن كافيا . فدخول هذه الأرض معناه القتال من أجل الحصول عليها ؛ لأنها أرض آهله بالسكان . والقتال ييتم الأبناء ؛ ويرمل النساء . وبنو اسرائيل ليسوا راغبين فى ذلك . ولذلك فهم راغبون عن هذه الأرض . واذا كان لابد من النزول بها ، فليكن ذلك بدون قتال ، فليكفهم ربهم شر هذا القتال ، وإلا كان متآمرا عليهم هو ورسوله ، فاستقدامهم إلى الصحراء للقضاء عليهم . إنهم يهابون أهل البلاد التى وعدوا بها ، وليست لديهم الشجاعة لملاقاتهم ؛ فاذا أجبروا على ذلك كانت هذه حيله احتال بها (يهوفا) عليهم ليبيدهم ؛ لأنه يكرههم فى قرارة نفسه ، ويريد بهم السوء .

---

(١) تثنية ١١ / ١٠ — ١٥

استمع إليهم حين يقولون :

" إنما أخرجنا الرب من مصر ، لأنه يبغضنا ، حتى يسلمنا الى أيدى الأموريين ويفنينا . إلى أين نحن صاعدون وإخوتنا قد أذابوا قلوبنا بقولهم : إن القوم اكثر منا [عددا] ، وأرفع قامات ، وإن مدنهم عظيمة ، حصونها تكاد تبلغ عنان السماء (١) "

كانت هذه الصيحات المدوية التى دلت على ارتعابهم من خوض المعارك مثلا آخر على مقدار ماكان يشيع فى نفوسهم من جبن . ولم يكن أمام موسى إلا أن يطمئنهم ، وأن يعدهم بأنهم لن ينزلوا إلى ساحة الوغى ، وما داموا يهابون الحرب ، فسيكفيهم شرها ، وسيجعل (يهوڤا) يحارب بالنيابة عنهم .

فهو يرد عليهم بقوله :

" فقلت لهم : لاتهابوهم ولاتخشوا بأسهم ؛ فإن الرب ، إلهكم ، السائر أمامكم سيحارب بدلكم ، كما صنع فى مصر أمام أعينكم ... ولكنكم لم تثقوا فى هذا الأمر بالرب ، إلهكم ، السائر أمامكم فى الطريق ليتفقد لكم مكانا تنزلون به ، [السائر] فى النار ليلا ليريكم الطريق الذى تسلكون ، وفى الغمام نهارا (٢) "

هل كان هذا كله كافيا لبث روح الحماس فى نفوس بنى اسرائيل ؟ لا ، وربى . فلقد بعث موسى عيونا يستطلعون حال البلاد التى جاءوا لفتحها ، فعاد هؤلاء العيون إليه ، وأخيه ، والشعب معه ، بتقريرهم ؛ فماذا حدث ؟

" فرفع كل أفراد الجماعة أصواتهم وصرخوا ، وبكى الشعب فى تلك الليلة ؛ وتذمر على موسى وهارون جميع بنى اسرائيل ؛ وقالت لهم كل الجماعة : ياليتنا متنا فى أرض مصر ! أو ياليتنا متنا فى هذه الصحراء ! لماذا أتى الرب بنا إلى هذه الأرض حتى نسقط تحت السيوف ، وتصبح نساؤنا

---

(١) تث ١ / ٢٧ - ٢٨ أ .
(٢) تث ١ / ٢٩ ، ٣٢ ، ٣٣

وأطفالنا غنيمة ؟ أليس خيراً لنا أن نرجع إلى مصر؟ . وقال بعضهم لبعض ، لنُقيم رئيسا ، ونرجع إلى مصر[١]"

... " فقال الرب لموسى : إلى متى يستخف بى هذا الشعب ؟ وحتى متى لايؤمنون بى بعد جميع الآيات التى صنعتها بينهم ؟ هأنذا سأبعث عليه الوباء ، حتى ينقرضوا ، وأجعل منك أنت أمة أعظم منهم وأكثر[٢]"

ثم عاد الرب مغضبا يقول :

« وكلم الرب موسى وهارون قائلا : إلى متى أحتمل هذه الجماعة الشريرة المتذمرة على ؟ فلقد سمعت تذمر بنى اسرائيل الذى تذمروه على[٣]».

هذا هو الشعب الاسرائيلى كما يصفه إلهه ، الشعب الجبان الشرير ، الذى قضى عليه ربه بالتيه فى طور سيناء جزاء ذلك أربعين عاما . ولكن هذه العقوبة لم تؤثر فى نفسه فتردعه ، كما لم يردعه أن قضى ربه على الشامتين « الشريرين المجتمعين عليه » بضربة منه[٤] » .

هذا هو الشعب الذى لا يفتر موسى عن تذكيره فى كل خطوة بمآثر ربه عليه وآياته ، ولكنه سرعان ما ينساها ، ويعود إلى طبيعته :

« اذكر ، لا تنس إسخاطك الرب ، إلهك ، فى الصحراء . فانكم منذ خرجتم من أرض مصر حتى جئتم هذا المكان لم تنقطعوا عن معاصاة الرب ؛ وقد أسخطتم الرب فى حوريب חֹרֵב فغضب عليكم وكاد أن يفنيكم[٥] » .

هذه هى الخطة التى سار عليها السلف فى علاقته بربه ومنقذه ، فهل خالف الخلف الذين بقوا من الأبادة سنة آبائهم ؟ لا ، حتى اضطر موسى

---

(١) عدد ١٤ / ١ – ٤
(٢) عدد ١٤ / ١١ – ١٢
(٣) عدد ١٤ / ٢٧
(٤) عدد ١٤ / ٣٧
(٥) تث ٩ / ٧

أن يستعمل معهم لغة الوعيد حينما أحس منهم النكوص عن القتال إلى جانبه. فلقد حدث أنه حينما أراد موسى أن يعبر بهم نهر الأردن ليتملكوا ما يقع من الأرض غربه أن امتنع بنو رأوبن ראובן وبنو جاد גד عن المسير مع بقية الشعب ، وآثروا البقاء فى أرض جلعاد التى منحوها . « لأنها مكان يصلح للماشية » ولديهم منها كثير ، وليسوا براغبين فى الحرب — فوقف فيهم خطيبا يقول :

« هكذا فعل آباؤكم حين أرسلتهم من قادش برنيع קדש ברנע ليرودوا الأرض . فصعدوا حتى وادى العنقود נחל אשכול ، ورأوا الأرض ، وصدوا قلوب بنى اسرائيل عن المسير إلى الأرض التى أعطاهم الرب . فاستشاط الرب غضبا فى ذلك اليوم ، وأقسم قائلاً : لن يرى الرجال الذين صعدوا من مصر — من ابن عشرين سنة فصاعدا — الأرض التى أقسمت [فى أمرها] لابراهيم ولاسحق وليعقوب ، لأنهم لم يصمدوا فى متابعتى . . . . . واشتد غضب الرب على بنى اسرائيل ، فأتاههم فى الصحراء أربعين سنة حتى انقرض جميع الجيل الذى فعل الشر أمام عينيه. وها أنتم أولاء قد قمتم خلفا عن آبائكم ، نشء أناس خطاة ، لكى تزيدوا فى غضب الرب على اسرائيل ، لأنكم إن انصرفتم عنه عاد فترككم(١) فى الصحراء فتهلكون هذا الشعب كله (٢) »

وأخذ موسى يعاتب قومه على عدم عرفانهم الجميل ، وعلى أسفهم على مغادرة مصر ، ويذكرهم بما فعل الرب لهم ، وينكر عليهم ما يفعلون . يقول :

« أبهذا تكافئ الرب أيها الشعب الأحمق غير العاقل ؟
أليس هو أباك ، مالكك الذى فطرك وأبدعك !
اذكر أيامك المواضى وتفهم سنى جيل فجيل

---

(١) عاد فتركه .
(٢) عدد ٣٢ / ٨ — ١٥

سل أباك ينبئك ، وأشياخك يحدثونك :
حين قسّم العليُّ الأُمَمَ وفرّق بنى آدم ،
وضع تخوم الأمم على عدد بنى اسرائيل[1] »

* * *

ولقد مات موسى ، وهو قلق على شعبه ؛ لأنه يعرف طبيعته كل المعرفة ، ويعرف أن أقدامه لم تكد تجف من ماء البحر حتى أعلن راية العصيان والتمرد على خالقه . فنراه يقول قبل وفاته للاويين ، حاملى تابوت العهد :

« خذوا سفر هذه التوراة ، وضعوه إلى جانب تابوت عهد الرب ، إلهكم ، فيكون ثم شاهدا عليكم ؛ لأنى أعرف فيكم التمرد ، وقساوة الرقاب . لقد تمردتم على الرب ، وأنا لا زلت حيا بينكم ، فكيف بكم بعد موتى[1] »

هذه هى شهادة نبى بنى اسرائيل الذى جازف بحياته فى أرض مصر . وفى صحراء سيناء ، لكى ينقذ شعبه من الضر الذى كان يزل به . وهذه هى شهادة (يهوفا) الذى اتخذ منه شعبا مختاراً يفرضه على الناس فرضاً ، ويوصيه بأن يبيدهم ليحل هو محلهم ، وهذه هى شهادة هارون وغيره من قادته : إنه شعب قاسى الرقبة ، شرير ، جبان ، رعديد ، متمرد ، جحود ، أنانى . يؤثر العافية على الحياة الحرة الكريمة ، كسلان . . .

وليس بودنا أن نضيف الى هذه الصفات شيئا ، فهى حسبه ، وإن كانت مادة هذه الصفات غير الكريمة فى كتاب « العهد القديم » تؤلف قائمة طويلة لا نهاية لها . (وسنكملها فى بحث آخر إن شاء الله) .

واذا كان لنا أن نضيف شيئاً إلى هذه الصورة التى تجلى فيها موقف الشعب الاسرائيلى من نبيه وربه اللذين حاولا أن يخلقا منه شعباً أبياً شجاعاً فعجزا ، فلنذكر صورة مماثلة حدثت بين الرسول محمد (عليه السلام) وبين قومه الذين أراد أن يخوض بهم المعارك لينشر دين الله ، وتجلى فيها روح الاقدام والمغامرة ، روح التضحية والبذل بأوسع معانيهما .

---

(1) تث ٣٢ / ٦

فى يوم (بدر) حين طلب الرسول إلى قومه إعداد أنفسهم لخوض معركة من أعنف المعارك التى سيخوضونها ، لم يتخلوا عنه ، ولم يسخروا منه ، ولم يجبنوا كما جبن بنو إسرائيل ، بل أثبتوا بأقوالهم وأعمالهم أنهم كانوا أهلا للثقة التى وضعها فيهم ، وللمكان الذى أنزلهم به . فلما أن استشارهم الرسول فى الأمر وقف زعماء المهاجرين والأنصار يؤازرونه .

فها هو ذا (المقداد بن عمرو) يقول :

« يارسول الله ! إمض لما أراك الله ، فنحن معك . والله ! لانقول كما قالت بنو اسرائيل : إذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا ها هنا قاعدون . ولكن ، إذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا معكما مقاتلون . فوالذى بعثك بالحق ! لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه » .

وهذا « سعد بن معاذ » عن الأنصار يقول :

" قد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ، ومواثيقنا على السمع والطاعة ؛ فامض ، يارسول الله ! لما أردت ، فنحن معك . فوالذى بعثك بالحق ! لواستعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك ماتخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ؛ إنا لَصُبُر فى الحرب ، صُدُق فى اللقاء ، لعل الله يريك ما تقر به عينك ، فسر على بركة الله . "

٢ — سياسة بنى إسرائيل الحربية

ارتد بنواسرائيل على أعقابهم بعد أن هاجموا مصر ونقلت إلينا الأنباء أنهم أتوا من الأعمال الوحشية والتخريبية أثناء مقامهم بالبلاد ، وعند ارتدادهم عنها ما يندى له جبين الإنسانية . فلقد قتلوا الأطفال الأبرياء ، ونهبوا المتاجر ، ومستودعات الجيش ثم أتو على كل أثر للمدنية صادفهم .

فها هو ذا مراسل جريدة (نيويورك ورلد تلجرام اند صن) المرافق لقوات الأمم المتحدة فى سيناء يقول : إن القوات الاسرائيلية المرتدة تتخذ لنفسها

سياسة « الأرض المخربة » ؛ فقد مزقت الطرق ، ووضعت الألغام في كل مكان ؛ حتى لقد بدت الأراضي وكأنما خضعت لحملة تأديب أكثر منها لعملية عسكرية . وأضاف المراسل يقول : إننا رأينا ثلاث قرى ، وقد خلت من الحياة ؛ إذ تفرق أهلها بددا ، أو أبعدوا عنها ، وقتلت الماشية ، ودمرت صهاريج المياه ، ونسفت جميع الدور أو هدمت ، وخربت آبار البترول ، ونسفت مناجم المنجنيز . وإن الخطوط الحديدية تلفت على أبعاد منتظمة ، وكأنما قطعت بآلات ضخمة من التي تستعمل في قطع المعادن ، وانتزعت أسلاك (التليفون) ، واستخدمت الحراسات والدبابات ، وقذائف المدافع في هدم جميع الجدران ، وأسقف المباني ونثرت محتوياتها على الرمال . ورأينا محطة السكة الحديدية وكأنها كومة من الأحجار . كذلك نسفت القوات الاسرائيلية مستودعات المياه (١) »

هذا طرف مما ذكرته الصحف عن أعمال التخريب الوحشية التي قام بها آل صيون ، والتي لا يمكن أن تقل في بشاعتها وحطتها عن تلك الأعمال التي كان هؤلاء اليهود ينسبونها إلى الألمان قبل الحرب الأخيرة ، والتي كانوا يعدونها ضربا من أعمال الهمجية الأولى . ولكن الذي شهد ما عمله الألمان في البلاد التي احتلوها أثناء الحرب الماضية ثم جلوا عنها يؤمن بأن الألمان كانوا ملائكة أطهارا إذا ما قيسوا بهؤلاء الصيونيين .

وقد يبدو عمل هؤلاء لأعيننا غريبا ، ولكن كتاب « العهد القديم » ينقل الينا أن ما أتوه اليوم في سيناء من سياسة التخريب والإبادة لا يختلف في قليل أو كثير عن سياسة أسلافهم الذين عاشوا قبلهم بما يزيد عن ألفي عام أثناء فتحهم لأرض فلسطين وأثناء مقامهم بها . واذا كانت القسوة والوحشية والخيانة طابع آل صيون اليوم ، فقد كانت فخر آبائهم الذين نزلوا « أرض الميعاد » قبل المسيح بمئات السنين ، وشردوا أهلها — كما شردوهم اليوم — ، واستعملوا معهم جميع وسائل العنف والفظاظة التي لم يكن يجدر بشعب يدعى أنه اختير من بين شعوب العالم ، ليؤدى

---

(١) جريدة الأهرام في ١٤ / ١٢ / ١٩٥٦

الرسالة الإلهية الرحيمة إلى الانسانية جمعاء أن يستعملها . والغريب فى الأمر أن السياسة الحربية المخربة التى كان يسير عليها هذا الشعب الاسرائيلى كانت تملى عليه باسم الدين ، عليها إلهه المتعطش للدماء ، وقادته الذين يرسمون له طريق الحياة الدنيا الفاضلة ، والحياة الآخرة !

فها هو ذا (يهوفا) الذى اختار بنى إسرائيل ليكونوا له شعباً خاصاً به ، قد نسى أو تناسى أن شعوب العالم كله هم عباده ، وأن من الحكمة اذا كانت قد انصرفت عنه إلى عبادة آلهة آخرين أن يردها إلى الصواب ، وأن يعيدها إلى حظيرة طاعته . ولم يكن هناك ما يمنع من أن يتخذ من « شعبه المختار » دعاة إلى هذه الطاعة . ولكنه اتخذ من هذه الشعوب أعداء له ناصبهم العداء ، وآلى على نفسه أن يبيدهم من على وجه الأرض ، وأن ينكل بهم فى أى مكان وجدوا ، وأن يشردهم من ديارهم ، إذا لم يستطع القضاء عليهم ، ليحل محلهم شعبه المختار . وقد اتخذ من بنى اسرائيل أداة لتنفيذ هذه السياسة ورسم لهم معالم سياسة الفتح التى سيتبعونها ، وهى سياسة لا تعرف معنى للرحمة ولا للشفقة ولا للانسانية ، سياسة تجردت من كل معانى الشهامة والنبل والعزة ، سياسة قوامها القضاء على كل ذى نفس حية فى الأرض التى يدخلونها من إنسان وحيوان ، والقضاء على معالم الحياة فى الجماد . ولقد اتخذ بنو إسرائيل من هذه السياسة قانوناً يطبقونه دون استثناء ، فلم يحيدوا عن رسم التعاليم . وليت هذا كان إيماناً منهم بالعقيدة وبيهوفا إلههم ، ولكنه كان إيماناً بهذه السياسة ، لأنها ستمكنهم فى أرض لم تكن لهم . وآية ذلك أنه لم تكن تمضى عليهم فترات قصيرة من وقت لآخر حتى يعلنوا عصيانهم لهذا الاله الذى تفضل فاختارهم شعباً له ، ووعدهم بامتلاك أرض يسكنها قوم آخرون . هذا العصيان الذى كان يتجلى فى مظاهر حياتهم المختلفة ، والذى لم تخل منه حقبة من حقب التاريخ الإسرائيلى . ولو أننا عددنا مقدار المرات التى كان يحيد فيها هذا الشعب عن عبادة إلهه ، والتى كان يغضب إلهه هذا عليه بسببها لوجدناها تبلغ المئات . فلو كان شعب بنى إسرائيل يؤمن حقاً بالسياسة الدينيّة التى وضعت له لما حدث منه عصيان وكفران بالنعمة التى أنعم (يهوفا) بها عليه . ولكنه كان يكفر بها ، لأنها تحول

بينه وبين الانغماس في الشهوات . أما السياسة الحربية فكانت سياسة تتفق والمصلحة الإسرائيلية ، ولذلك نفذت بحذافيرها ؛ ورأينا (موسى) و(يشوع) — كما روى « العهد القديم » — وغيرهما من الدعاة يحملون بني اسرائيل على ترسم خطاها .

ما كان أشفق (يهوفا) بشعبه ، وما كان أجرأ هذا الشعب على إلهه ، وأكثره عقوقا !! لقد بلغ من حدب (يهوفا) على شعبه المختار أن قرر ألا يبيد سكان الأرض الموعودة دفعة واحدة ، حرصاً منه على حياة عباده المدللين ؛ حتى « لاتصير الأرض خربة ، فتكثر عليه وحوش الصحراء » ولذلك فسيطردهم « من أمامه شيئاً فشيئاً إلى أن تثمر ، وتملك الأرض[1] » فهل هناك إله أرأف بشعبه من هذا الإله ؟ !

ووضع يهوفا دستوراً عجيباً لمعاملة المحاربين ، ومعاملة البلاد المفتوحة التي قاد شعبه ليحتلها عنوة ، ويصير سيداً لها دون أهلها . إنه دستور لا يمت لأي مبدأ من مبادئ الانسانية ، ولا يمكن أن يصدر عن آله ؛ مهما كانت كراهيته لعباده ، ومهما كان حبه لشعب اصطفاه . إنه دستور يدعو إلى قتل من لا ذنب لهم ولا جريرة ، قتلا لا يبقى ولا يذر ، ويدعو إلى التمثيل بهم شر تمثيل ، أما ذنبهم الذى اقترفوه فهو أنهم دافعوا عن بلادهم التى ورثوها عن أسلافهم ، وتفوا في كرامة وعزة ليصدوا غارات المعتدين . إنه دستور لا يفرق بين الكائنات حية وغير حية ، فهو يجعلها كلها مسئولة عن عدم التسليم بالفتح والاحتلال ، حتى البهائم ، حتى البيوت والمزروعات !! .

يقول يهوفا على لسانه موسى :

« حين تقترب من مدينة لكى تحاربها أدعها للصلح ، فإن أجابتك للصلح وفتحت لك [أبوابها] ، فكل الشعب الذى بها يدفع لك الجزية ويستخرلك !! ، وإن لم تجبك إليه بل دخلت فى حرب فحاصرها ؛ فإذا أسلمها الرب ، إلهك ،

---

(١) خروج ٢٣ / ٢٩ راجع تثنية ٧ / ٢٢

إليك فأعمل السيف فى كل من بها من الذكور !! وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة ،كل ما بها من غنيمة يكون نهباً لك . ولتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب إلهك » .

« هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جداً ، [تلك] التى ليست من مدن هذه الأمم [التى] هنا . وأما مدن هذه الشعوب التى يعطيكها الرب ، إلهك ، ميراثاً فلا تستحى منها نسمة [يالله !] ؛ لأنك ستهدمها [سواء فى ذلك] الحثيون הַחִתִּי والأموريون הָאֱמֹרִי والكنعانيون הַכְּנַעֲנִי والفرزيون הַפְּרִזִּי والحويون הַחִוִּי واليبوسيون הַיְבוּסִי — كما أمرك الرب ، إلهك — لئلا يعلموكم أن تعملوا ككل الأرجاس التى عملوا لآلهتهم ، فتخطئوا فى حق الرب إلهكم » .

« واذا حاصرت مدينة أياما طوالا لتحاربها ولتستولى عليها فلا تتلف شجرها بإعمالك البلطة [فيها] ، لأنك ستأكل منه ، فلا تقطعه . وهل شجر الحقل إنسان حتى يأتى أمامك فى الحصار ؟ وأما الشجر الذى تعرف أنه شجر غير مثمر فأتلفه وقطعه . وابن حصنا على المدينة التى تحاربك حتى تسقط(١) » .

هذا طرف من الدستور الذى تظهر الحكمة فى بعض نواحيه ، باستبقاء الأشجار المثمرة ، واستحياء النساء والأطفال والبهائم ، والوحشية فى بعضها الآخر ، وهو إفناء الأهلين حتى لاتبقى منهم نسمة ما أى القضاء على كل ذى نفس حية فى المدينة المفتوحة . فهل شهدت الانسانية ربا كهذا الرب ، وشعبا كهذا الشعب ؟ وأية انسانية فى مثل هذا الدين الذى يدعو إلى الإبادة الكاملة لكائنات الأرض المغزوة جميعا . هذه هى اسرائيل الأمس . فهل حاكت المدنية الحاضرة ، والمبادئ الإنسانية السامية التى أتت بها المسيحية والاسلام فى نفوس آل صيون اليوم ؟ لقد كان اليهود يصفون هتلر بالقسوة والهمجية لأنه قتل منهم بضع مئات أو أخرجهم من دياره التى عاثوا فيها فسادا ، فماذا يصفون صنع أسلافهم الذى لا يمت إلى الانسانية بسبب ، مهما قيل فيه إنه كان بأمر من يهوڤا ، الاله المحب لشعبه المختار !!.

---

(١) تثنية ٢٠ / ١٠ – ٢٠

ولكن « العهد القديم » قد وضع مبادئ أخرى في معاملة المحاربين والمدن المفتوحة إلى جانب المبدأ الذي ذكرنا ، مبادئ لاتقل وحشية عنه ، مبادئ تدعو إلى التمثيل بالقتلى ، وإلى إحراق المدن ، وتعذيب الأجسام ، والقضاء على النساء والأطفال خشية أن يفسدوا عقيدة الشعب المصطفى . لقد ثار موسى – فيا تقول التوراة – حين استبقى الغزاة بعض النساء والأطفال من المديانيين على قيد الحياة بعد أن قتلوا ملكهم ، وأعملوا السيف في رقاب الرجال ، ونهبوا (هذه هي اللفظة التي تذكرها التوراة دائماً) جميع البهائم والمواشي وكل الممتلكات ، « وأحرقوا جميع المدن بمساكنها ، وجميع الحصون بالنار ، وأخذوا كل الغنيمة وكل النهب ! من الناس والبهائم »[1] . ثار موسى ، وقال لهم : « هل أبقيتم على كل أنثى حية ؟ إن هؤلاء هيأن لبني اسرائيل – كما قال بلعام בִּלְעָם – سبيل خيانة للرب في مسألة بأعور פְּעוֹר ، فحل الوباء بجماعة الرب . والآن ، فاقتلوا من الأطفال كل ذكر ، وكل امرأة عرفت رجلا . اقتلوا كل امرأة ضاجعها رجل ، ولكن أبقوا على حياة كل فتاة لم يضاجعها رجل ، أبقوها لكم[2] » .

هل وصلت بهتلر الوحشية إلى أن يفعل مثل ما أمر به موسى ؟

لقد كان بنو إسرائيل حريصين على تنفيذ سياسة الإبادة ، وقد تفننوا في ذلك كل التفنن ، فلم تكن بعض المدن بأحسن حالا من بعضها الآخر . فهاهي ذي (أريحا) المكافحة تلقى من الغزاة المستخربين أفظع ماتلقاه مدينة مفتوحة . فلقد محيت من على وجه الأرض هي وجميع من بها ومابها ، ولعن يشوع من يفكر فيما بعد في إعادة بنائها .

يقول سفر يشوع :

« وأتوا على كل من بالمدينة من رجل وامرأة وطفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير أعملوا فيها السيف[3] » « وحلف يشوع في ذلك الحين قائلا :

---

(١) راجع عدد ٣١

(٢) عدد ٣١ / ١٦ – ١٨

(٣) يشوع ٦ / ٢١

ملعون أمام الرب من يقوم ويبني هذه المدينة ، أريحا ، من يستعين بولده البكر على وضع أساسها وبصغيره على إقامة أبوابها[1] » .

بل لقد كانت بعض المدن تقدم بما فيها قربانا يتقرب به إلى (يهوفا) .

يقول سفر العدد :

« ولما سمع الكنعاني ، ملك عراد עֲרָד الذى يقيم فى الجنوب נֶגֶב ، أن إسرائيل جاء عن طريق أتاريم אֲתָרִים التحم به ، وسبى منه سبيا . فنذر إسرائيل لله نذرا فقال ، إن دفعت هذا الشعب بين يدى خربت مدنهم . فاستجاب الرب لقول اسرائيل ، ودفع بالكنعانيين إليه ، فأتى على مدنهم ، ولذلك سمى هذا المكان « خرابة »[2] » .

وكان يهوفا نفسه يدعو ، على لسان رسوله ، إلى التمسك بهذه السياسة ، ويشجع عليها ، ويحث شعبه على إبادة الناس من أمامه ويعده بأنه سيعينه على ذلك ، فليس هناك إذن مايدعو إلى التردد أو الإجفال أو رهبة المحاربين .

فها هو ذا يقول ليشوع فى شأن الملوك المجتمعين على مياه ميروم :

« لاتجفل أمامهم ، لأنى سأدفع بهم غدا فى مثل هذا الوقت جميعا قتلى أمام إسرائيل ، فتعرقب خيلهم . وتحرق بالنار مركباتهم[3] » .

إنه يريد أن يقضى على وسائل المقاومة عندهم ، حتى إذا ماهزموا لايستطيعون العودة الى القتال ، مادام عتادهم قد أحرق ، وخيولهم قد أصيبت فى عراقيبها . ولقد أبلى بنو اسرائيل فى تنفيذ هذه الوصية بلاء حسنا ، وجاوزوا فى سوء المعاملة ماجعلهم حقاً معلمين فى التنكيل والتخريب . فبعد أن انقض يشوع ورجاله على هؤلاء الملوك « دفعهم الرب بين يدى إسرائيل ، فضربوهم ، وطاردوهم حتى صيداء צִידוֹן العظيمة ، وحتى

(۱) يشوع ٦ / ٢٦
(۲) عدد ٢١ / ١ - ٣
(۳) يشوع ١١ / ٦

مسرفوت مايم מִשְׂרְפוֹת מַיִם وحتى بقعة مصفى מִצְפֶּה شرقا ، ضربوهم حتى لم تبق منهم بقية وفعل يشوع بهم كما أمر الرب : عرقب خيلهم ، وأحرق مركباتهم بالنار . ثم رجع يشوع فى ذلك الوقت ، وأخذ حاصور חָצוֹר ، وضرب ملكها بحد السيف ... كذلك ضربوا بحد السيف كل نفس حية بها ، قضوا عليها ، ولم تبق نسمة واحدة ، وأحرق حاصور بالنار . أخذ يشوع كل مدن أولئك الملوك ، وجميع ملوكها ، وأعمل فيهم السيف ، أبادهم ، كما أمر موسى ، عبد الرب ... وكل غنيمة تلك المدن والبهائم نهبها إسرائيل لنفسه . أما الرجال فأعملوا فيهم جميعا السيف حتى أبادوهم ، لم يبقوا على نسمة واحدة [1] ... » وأخذ جميع ملوكها ، وضربهم فأماتهم [2] » .

وغريب أن يتآمر الرب مع شعبه المختار لدفع هؤلاء السكان الآمنين إلى القتل ، وإظهارهم بمظهر المعتدين ، حتى تكون هناك تعلة للقضاء عليهم . فهذا مؤلف سفر يشوع يعترف بأن يهوذا هو نفسه الذى قوى قلوب ملوك المنطقة التى تمتد « من الجبل الأقرع الصاعد إلى سعير ، إلى بعل جاد ، فى بقعة لبنان ، تحت جبل حرمون » حتى يلاقوا إسرائيل للقتال ، فيقضى عليهم ، ولا تكون بهم رأفة ، بل يبادوا ، كما أمر الرب موسى [3] » .

أهناك جريمة أبشع من هذا التآمر ؟

ولقد تجلت سياسة الإبادة هذه بصور شتى : ونفذت فى أماكن مختلفة من « أرض الميعاد » . نفذت كلما استطاع بنو إسرائيل أن يفعلوها : كلما أعانهم (يهوڤا) على من يحاربهم ، وعدل عنها كلما وجدوا خصمهم عتيدا لا يقوون عليه هم و(يهوڤا) [4] . ولذلك حاولوا أن يجدوا لذلك علة ، فاخترعت قصة « الحيوانات المفترسة » التى أشرنا اليها من قبل (ص ١٨) .

---

(١) يشوع ١١ / ٨ - ٤

(٢) شرحه ١٧

(٣) شرحه ٢٠

(٤) حكام ١ / ١٩ " ولكن لم يطرد سكان الوادى ؛ لأن لهم مركبات من حديد " .

فهذا موسى يقول :

« قال لى الرب : انظر ، قد ابتدأت أدفع أمامك سيحون סִיחֹן وأرضه . ابتدئ ، تملك حتى تمتلك أرضه . فخرج سيحون للقائنا ، هو وجميع قومه ، فى ياهص יָהְצָה لمحاربتنا . فدفعه الرب ، إلهنا ، أمامنا ، فضربناه هو وبنيه وجميع قومه ، وأخذنا فى ذلك الحين كل مدنه ، وأتينا فى كل مدينة على الرجال والنساء والأطفال ، لم نبق فيهم بقية . لكن نهبنا (1) البهائم لأنفسنا ، وغنيمة المدن التى فتحناها ... [1] » .

وهذا عوج עוֹג ملك باشان בָּשָׁן يخرج للقاء بنى اسرائيل ، فيقول الرب لموسى :

« لاتخف منه ، لأنى قد دفعت به إلى يدك هو وجميع شعبه وأرضه ، فتفعل به كما فعلت بسيحون [أى تقتله .] ، ملك الأموريين ، الساكن فى حشبون חֶשְׁבּוֹן . فضربوه وبنيه وشعبه حتى لم تبق منهم بقية ، وتملكوا أرضه [2] » .

أما ملك عاى עַי ورجاله الذين أظهروا بسالة جعلت بنى اسرائيل يولون الأدبار [3] ، وجعلت يشوع يمزق ثيابه ، ويسقط على وجهه أرضا ، فقد جوزى وقومه ومدنه شر جزاء . فبعد أن بكى الشعب واستنجد براعيه الأكبر ، وقف يشوع يوصيه قائلا :

« عندما تستولون على المدينة أشعلوا فيها النار ؛ افعلوا كما أمر الرب [4] » « ... و دخلوا المدينة ، واستولوا عليها ، وأسرعوا فأشعلوا النار فى المدينة [5] » « ... وضربوهم حتى لم يبق منهم شارد ولا منفلت ،

---

(١) تث ٢ / ٣١ – ٣٦
(٢) عدد ٢١ / ٣٣ – ٣٥ ، راجع تث ٣ / ٣ – ٧
(٣) يشوع ٧ / ٤ – ٥
(٤) يشوع ٨ / ٨
(٥) شرحه ١٩

وقبضوا على ملك عاى حيا ، وذهبوا به إلى يشوع . ولما أن فرغ إسرائيل من قتل جميع سكان عاى الذين تعقبوهم فى الحقول وفى الصحراء، وسقطوا جيعا بحد السيف حتى فنوا — عاد جميع إسرائيل إلى عاى ، وأعملوا فيها السيف . فكان جميع الذين سقطوا فى ذلك اليوم من رجال ونساء اثنى عشر الفا (!) ، جميع أهل عاى . . . ولكن إسرائيل نهب (!) البهائم ، وغنيمة تلك المدينة لنفسه . . . وأحرق يشوع عاى ، وجعلها تلا أبديا خرابا الى اليوم ، وعلق ملك عاى على الخشبة حتى المساء . وعند الغروب أمر يشوع فأنزلوا جثته عن الخشبة ، وطرحوها عند مدخل باب المدينة ، وأقاموا عليها كومة عظيمة من الحجارة حتى يومنا هذا [1] »

هذه المُثْلة التى نهى عنها الاسلام ، كانت جزءا من السياسة الحربية التى سار عليها القائد العظيم يشوع ، الذى كان يتلقى الوحى من ربه ، ويستغيث به كلما أطبقت الهزيمة عليه وعلى فلول قومه .

ولم يكن حظ الكنعانيين فى بازق والفرزيين باحسن حالاً من حظ أهل عاى ، فقد قتل منهم فى بازق عشرة آلاف رجل (!) [2] أما أدونى بازق فقد مُثِّل به ، كما مُثِّل بملك عاى ، فقد تبعوه حين هرب « وأمسكوا به ، وقطعوا أباهم يديه ورجليه [3] » . فهل فعل هتلر باليهود مثل ما فعلوا بهذه الامم ؟ وهل فيهم اليوم من يستنكر مثل هذه الأعمال الوحشية التى ارتكبت باسم الاله ، وكان دعاتها ومنفذوها هم أولئك الذين وضعوا أسس الشريعة الاسرائيلية ؟

ولقد كانت معاملة عماليق معاملة بلغت حدا من الفظاظة لا يخطر ببال ، فقد تناول القتل جميع من يمكنه أن يشترك فى القتال أو لا يمكنه ، ونص

---

(١) يشوع ٨ / ١٢ - ٢٩

(٢) حكام ١ / ٤

(٣) حك ١ / ٦

على فئات من الناس لا تجيز القواعد الحربية الانسانية بله الالهية أن تصاب بسوء . فقد طلب صموئيل من شاؤول أن يقتل النساء والأطفال والرضع من العماليق ، لأن هؤلاء قد وقفوا لبني اسرائيل أثناء فتحهم فلسطين بالمرصاد ، «أي لم يخلوا لهم الطريق ، ويساعدوهم على احتلال البلاد ، ولو بدون حق » . فأى شريعة تأمر بمثل ما تأمر به شريعة بني اسرائيل ؟

« وقال صموئيل لشاؤول : أنا الذى أرسلني الرب لأمسحك[1] ملكا على شعبه ، على اسرائيل . فاسمع الآن قول الرب :

«هكذا يقول رب الجيوش : قد ذكرتُ ما صنع عماليق עֲמָלֵק باسرائيل ، كيف أقام له فى الطريق ، عند خروجه من مصر . فهلم الآن ، واضرب عماليق ، واتوا على كل ما له ، ولا تأخذك شفقة به ، بل اقتل الرجال والنساء ، والصبيان والرضع ، والبقر والغنم ، والابل والحمير.[2] »

إن هذا الإمعان فى القتل لم يكن فى سبيل نشر عقيدة دينية ، أو ردا لقوم ضلوا طريق الهداية إلى الصواب ، بل كان لاسكان شعب الله» المختار» أرض قوم لم يقترفوا جرما حتى يشردوا فى الطرقات .

وعجيب أن يقف شاؤول من هذا الأمر موقفا كان السبب فى غضب الرب عليه وإقالته من منصبه . فقد حزم شاؤول أمره ، وجمع شعبه وأحصاهم فكانوا « مائتى ألف راجل ، وعشرة آلاف رجل من يهوذا »، وزحف على مدينة عماليق ، فأخذ ملكها أجاج אֲגַג حيا ، وأعمل السيف فى جميع أهل المدينة . « واستحيا شاؤول والشعبُ أجاج وخيارَ الغنم والبقر ، وكل سمين والحملان ، وكل ما كان طيبا ، لم يرغبوا فى القضاء عليها . ولكنهم قضوا على كل ما كان حقيرا هزيلا[3] »

---

(١) كانوا يمسحون رءوس الملوك بالزيت عند تنصيبهم .

(٢) صموئيل اول ١٥/١ - ٣

(٣) شرحه آية ٩

هذا هو ما فعله شاؤول وقومه : الاستيلاء على خيار البهائم وقتل ما عداها . فاستشاط الرب غضبا من هذا الصنع ، وبعث برسوله صموئيل يعتب على شاؤول ما صنع ، ويتذره بغضب الله عليه ، ويندمه على تنصيبه إياه ملكا . وإذ بشاؤول يعلل تصرفه وتصرف قومه بقوله :

« لقد استحيا الشعب الطيب من الغنم والبقر ، لكى يقدمها قربانا للرب ، الملك ، أما سواها فقد قضى عليه [1] » .

فلم يعجب هذا التعليل صموئيل ، فرد عليه يقول :

« مه ، حتى أخبرك بما كلمنى به الرب الليلة . فقال له : تكلم . »

« فقال صموئيل : ألم تكن صغيرا فى عينى نفسك فأصبحت رئيساً على أسباط إسرائيل ؟ مسحك الرب ملكا على إسرائيل ، وبعث بك « يهوفا » فى طريق ، وقال لك : انطلق واقض على العماليق الخطاة ، حاربهم حتى تفنيهم عن آخرهم . فلم لم تستجب الى صوت (يهوفا) ، وجنحت إلى الغنيمة ، وصنعت الشر فى عينى (يهوفا) » ؟

كان هذا التقريع سببا فى أن أنحى شاؤول على نفسه باللائمة ، ولكن هذا لم يغنه فتيلا . ولم يقف صموئيل عند هذا الحد ، بل أمر ، فأتى له « بأجاج ، ملك عماليق .... فقال صموئيل : كما أثكل سيفك النساء ، فان أمك ستكون ثكلى بين النساء ، وقطّع וַיְשַׁסֵּף صموئيل أعضاء أجاج أمام الرب فى جلجال בַּגִּלְגָּל [2] » .

إن صموئيل وربه لا يقدران شعور هذا الملك ولا شعور شعبه حين يجدون أنفسهم مطاردين فى ديارهم ومطرودين منها أو مستذلين فيها : لتصبح ملكا لشعب لا فضل له إلا أنه « شعب الله المختار » !

---

(١) شرحه آية ١٥ — ١٩

(٢) شرحه آية ٣٣

إن هذا الإله الغارق فى الدماء — كما يصفه أهله — كانت تصاغ الأناشيد للتسبيح بسيامته الحربية .

من مثلك فى الآلهة يا رب ؟ من مثلك معتزا فى القداسة ؟
مخوفا بالتسابيح ، صانعا عجائب تمد يمينك فتبتلعهم الأرض ،
ترشد برأفتك الشعب الذى افتديت تهديه بعزتك إلى مكان قدسك
تسمع الشعوب فترتعد تأخذ الرعدة سكان فلسطين
حينئذ يندهش أمراء آدوم ، أقوياء مؤاب تأخذهم الرجفه
يذوب جميع سكان كنعان تقع عليهم الهيبة والرعب
بعظمة ذراعك يصمتون كالحجر، حتى يعبر شعبك ، يا رب ؟
حتى يعبر الشعب الذى اقتنيت ... ... »[1]

يا له من إله مخيف ؟ ويا له من إله غيور ، لا يعرف للرحمة طعما ، ولا يحاول أن يدعو الناس إذا ضلوا إلى الهداية ، بل ينزل بهم أبشع صور العذاب؟

استمع اليه يخاطب موسى :

« إن سمعت فى أحدى مدنك التى يعطيكها الرب ، إلهك ، لتسكن فيها أن أناسا من أهل اللؤم قد خرجوا من وسطك ، وغرروا بسكان مدينتهم قائلين : لنذهب ، ولنعبد آلهة أخرى لا تعرفونها ، وفحصت وفتشت ، وسألت جيدا ، فاذا الامر صحيح وأكيد أى قد عمل ذلك الرجس وسطك ، فأعمل السيف فى رقاب سكان تلك المدينة ، واقض عليها وعلى جميع ما بها حتى البهائم بالسيف ، فتجمع كل متاعها فى وسط ساحتها ، وتحرق المدينة بالنار هى وجميع ما بها من متاع للرب ، إلهك . فتكون تلا إلى الابد لا تبنى بعد ، ولا يلتصق بيدك شئ مما حكم عليه بالابادة ، لكى يرجع الرب عن عظم سخطه ، ويمنحك الرحمة ، يرحمك ويكثرك ، كما أقسم لآبائك[2] »

(١) خروج ١٥ / ١١ — ١٧
(٢) تث ١٣ / ١٢ — ١٧

هذا ، وقد تفنن (داود) فى الإماتة والاستحياء تفننا لا يخلو من طرافة وشذوذ . «كان الفلسطينيون فى حرب معه ، فظفر بهم ، وأخذ منهم لجام الجزية . ثم ضرب (مؤاب) ، ومسحهم بالحبل : أضجعهم على الأرض ، ثم أخذ يقيس [ملء] حبلين فيقضي عليهم بالموت ، وملء حبل فيُبقى على حياته[1]» .

فهل هناك تفنن فى التنكيل أطرف مما فعل هذا «الملك النبى» ؟ بلى ، لقد بلغت ضراوة داود هذا ووحشيته فى معاملة الشعوب المنهزمة ما لم يخطر على بال بشر . فلقد حارب أهل رَبّة רַבָּה بنى عمّون ، وانتصر عليهم «وأخذ تاج ملكهم من على رأسه — وكانت زنته «وَزْنة» כִּכָּר من الذهب ، [وبه] جوهرة ثمينة — ووضع على رأس داود ، وأخرج من المدينة غنائم كثيرة جداً .»

«أما الشعب الذى بها فأخرجه ، وأعمل فيه المناشير ، وقارب من الحديد ، وبلطا من الحديد ووضعه فى أفران من الآجر» .

«كذلك صنع بجميع قرى بنى عمون[2]»

ولسنا فى حاجة إلى التعليق على هذا العمل الوحشى .

* * *

إن الشعب الإسرائيلى قد غرق حتى أذقانه فى الدماء التى أسالها ، ولم يعد يعرف للحياة طعماً بدون ذلك ، وقد صحبته هذه الطبيعة طوال المدة التى كانت له فيها دولة : حروب طاحنة مستمرة ، ونكوص وعصيان ، وخروج عن طاعة يهوقا ، خالقه وهاديه . وقد كان يهوقا ، إلهه العظيم يدفعه إلى هذه المجازر دفعا ، ويهديه سبيلها ، ويقول له :

«اطردوا من أمامكم جميع أهل البلاد ، وحطموا جميع منقوشاتهم ، وأصنامهم المسبوكة ، ودكوا مشارفهم ، وامتلكوا الأرض وأقيموا بها لأنى أعطيتكم الأرض لترثوها ...»

---

(١) صموئيل الثانى ٨/١ — ٢

(٢) شرحه ١٢/٣٠ — ٣١

« وإن لم تطردوا أهل الأرض من أمامكم كان من تبقونه منهم كإبرة في عيونكم ، وكحربة في جنوبكم ، يضايقونكم في الأرض التي تقيمون بها (١) »

* * *

هذه هي السياسة المرسومة الموحى بها والتي سار عليها الصهيونيون حين عادوا إلى فلسطين بعد ألفي عام من خروجهم منها ، فأجلوا العرب عن ديارهم حتى لا يكونوا قذى في عيونهم ، وخطرا يهددهم دائما ، ولم تستطع المحاولات المتكررة التي بذلت منذ أعلن قيام « دولة اسرائيل » لحل قضية هؤلاء الفارين اللاجئين أن تصل إلى حل يرضى به هؤلاء المعتدون ، لأنهم يريدون الأرض لأنفسهم ، لا يشركهم فيها سواهم ، وهم في هذا يترسمون ما أمرهم به (يهوفا) من قبل حين استقدمهم إلى هذه البلاد بعد أن كانوا يضربون في آفاق الأرض المختلفة ، وينزلون عالة على الشعوب .

« للبحث بقية »

(١) عدد ٣٣ / ٥٥ – ٥٦